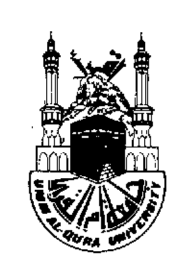
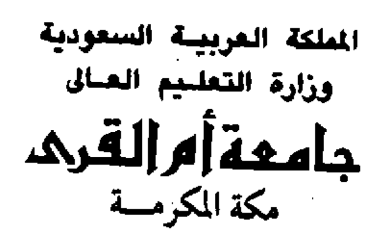
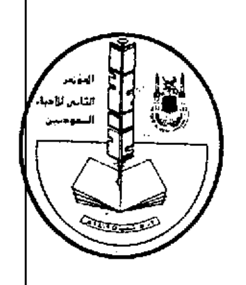










بحوث

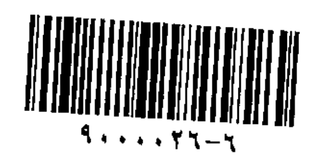
المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين

المنعقد في مكة المكرمة في المدة

٥ - ٧ شعبان ١٤١٩ هـ

الجزء الثاني

١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م



نظريات النقد الحداثي
في الميزان

بقلم
أ . د . محمـــود حسن زينـــي
أستاذ الأدب العربي ونقده
جامعة أم القرى

نظريات النقد الحداثي في الميزان

بقلم أ.د. محمود حسن زيني

أستاذ الأدب العربي ونقده

جامعة أم القرى

الحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال الله وعظيم سلطانه وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه .

أما بعد :

فإن النظريات الغربية في النقد الأدبي الحديث لها خطورتها وبخاصة البنيوية .

وقد بين الدكتور يوسف نور عوض في كتابه : نظرية النقد الأدبي الحديث[١] بصفة عامة أن « نظرية النقد في حقيقتها علم غربي خالص يثير كثيراً من الحساسيات في عالمنا العربي ، ذلك أننا ـ على حد تعبير المؤلف ـ ظللنا فترة طويلة نضع نقادنا .. ونحوهم في مصاف المواهب التي تجاوزت إطارها المحلي .. ولكن يجب أن نرى بوضوح أن معظم هؤلاء انطلقوا في واقع الأمر من نظريات وتصورات غربية خالصة ، وإذا كان ذلك لا يحرمهم من مكانتهم كنقاد تطبيقيين ، فإنه ولا شك يثير كثيراً من التساؤلات حول أحقيتهم في أن يكونوا نقاداً منظرين[٢] . هذا وقد وقف الدكتور يوسف نور عوض طويلاً عند الاتجاهات الرئيسة في نظرية النقد المعاصر وهي الاتجاهات الإنسانية والألسنية الأيديولوجية والنسوية (سيمون دى بفوار، صاحبة المقومات الأساسية للنقد النسوي) والهيرميوناطيقيا (نظرية الاستقبال وصاحبها ولفانج أيْسَرْ ، وهو الذي يرى أن القارىء يمنح الحركة للآراء المبرمجة ، ومن خلال هذه العملية يجعل العمل يفصح عن طبيعته الديناميكية[٣] .

وهناك ناقد آخر شهير ، بل هو من كبار النقاد العرب المسلمين الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي ونقده ألا وهو أ. د. عبدالقادر القط ، يبين خطورة نظريات النقد الغربي ومناهجه . وهو يرى أن النقد في أيامنا هذه « مصاب بداء تأثر النقاد العرب ببعض نظريات النقد الغربي ومناهجه وتجاوزوا في التطبيق الحد المقبول . وانتهى الأمر بهؤلاء إلى الاندماج الكامل مع الغرب في المنهج والأسلوب . وتجاهل هؤلاء النقاد الفروق بين النصوص العربية التي يتجه إليها النقد بالتحليل والتأويل ، وأصبحت عطاءات أصحاب النظرية الواحدة ـ كالبنيوية والأسلوبية ـ نمطا مكرراً لا تكاد تميز ما بينها على مستوى الأسلوب والمصطلحات . وفقد الناقد (شخصيته) التي لا ينبغي أن تغيب عن العمل النقدي . فالنقد ـ مهما خضع لمناهج النقد العلمي ـ لا بد أن ينطوي على شيء من طبيعة الإبداع والتفرد »(٤) .

ويرى الدكتور القط أن « الناقد الآن يقبل على النص منذ البداية ليحلله، ويكشف عن رموزه في طمأنينة حرفية » بالغة وكأنما يقدم (تحليلاً معمليًا) لمادة جامدة ، في حين يمثل النص الأدبي صورة فنية للحياة بقضاياها ومتناقضاتها ونماذجها أو بقدرتها على إثارة الاهتمام أو المتعة أو الدهشة . ويوصي د. القط نقادنا المعاصرين أن يقرأوا ما يشاؤون ، وما ينبغي لهم أن يقرأوه من نظريات النقد الغربي ومصطلحاته ، فذلك ما يجب على كل ناقد بصير أن يفعله ، لكن عليهم بعد ذلك أن يتمثلوا ما قرأوا ، ولا أن يستعبدوا فكرهم لتلك النظريات . عليهم أن يضيفوا إلى تلك النظريات، أو يعدلوا منها بما يناسب طبيعة النص العربي وقدرة قرائه . ولعلهم إذ يفعلون ينتهون ـ هم أنفسهم ـ إلى ابتداع نظريات جديدة وأسلوب جديد خاص بهم في التطبيق»(٥).

البنيوية الغربية في الميزان :

يكفى أن نعرف ما ذكر عن النظريات النقدية الحديثة فيما تناوله كل من الناقدين السابقين لشهرتهما وتمكنهما ومتابعتهما لكل ما يجدّ من هذه النظريات. ويكفى أن نعرف أن البنيوية وإن كانت قد انقرضت وماتت وعفى عليها الدهر في مواطن نشأتها في أوربا ، فإن كثيرا من المتعلقين بخيوط عنكبوتها في العالم العربي لا يرون بديلاً عنها ، وغدت شغلهم الشاغل وهم فيما يظنون من كتابة يحسبونها من النقد وعلى النقد وهي ليست من النقد في شيء أبداً، بل هي من بدع البنيوية وافتراءاتها .

فما هي إذاً البنيوية ؟

يعرفنا بها أحد دعاة البنيوية في العالم العربي ألا وهو د. صلاح فضل في كتابه : نظرية البنائية (مصر ، ١٩٧٧) ، بأنها : حفنة من المبادئ اللغوية الأولية ، كرّس لها حياته القصيرة عالم سويسري ـ ألا وهو فرديناند دي سوسير ١٨٥٧ ـ ١٩١٣م في مطلع هذا القرن ، حيث لم يمهله القدر لإنهائها وتسجيلها كتابة ، وإنما لم يزد على إملائها في عدة برامج دراسية على طلاب في جنيف ، تمثل حجر الزاوية ونقطة الانطلاق في النظرية البنائية ، لا في عالم اللغة فحسب وإنما في جميع ميادين الدراسات الإنسانية[٦] .

والبنيوية ليست بنيوية واحدة بل عدة بنيويّات ذلك لأنها على حد تعبير جان بياجيه « ارتدت أشكالاً كثيرة التنوع لا تسمح بتقديم قاسم مشترك وأن البنيات المعروفة اكتسبت معاني تزداد اختلافا[٧] .

وهناك البنيات الرياضية والمنطقية ، والفيزيائية والبيولوجية ، والبنيات النفسية ، والبنيوية اللغوية ، والبنيات في الدراسات الاجتماعية والفلسفية ، مما

تناولها جميعا جان بياجيه بالتحليل . وقد أشار بياجيه إلى أن دي سوسير استوحى من العلم الاقتصادي ، لأجل إرساء نظريته عن التوازن المتزامن[٨] . الأمر الذي يفهم منه أن التأثيرات المكونة التي استطاعت أن تتدخل عند أوائل البنيوية اللغوية والسيكولوجية ، كانت ذات طبيعة رياضية ، على حد تعبير بياجيه نفسه . وأشار إلى أن ليفى شتراوس ، أستاذ علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، استطاع أن يستنتج نماذجه البنيوية من الجبر العام مباشرة ، وإن كان ذلك في نظر جان بياجيه « لا يمكن أن يعدّ إلا نصرا جزئيا » لأن الميزة الأساسية لما أسميناه بالمدرسة البنيوية في الرياضيات أي مدرسة بورباكى (اسم مستعار لمجموعة رياضيين فرنسيين) هي أنها كانت تسعى لإلحاق الرياضيات بفكرة البنية[٩] .

ويبدو أن الأفكار التي أذاعها دى سوسير ، اعتبرها النقاد حجر الزاوية ونقطة الانطلاق في النظرية البنيوية . ويؤكد هذا القول الدكتور صلاح فضل فيقول بالحرف الواحد : « وقد أجمع الباحثون ، أو كادوا على أن حفنة من المبادئ اللغوية الأولية كرّس لها عالم سويسري حياته القصيرة في مطلع هذا القرن ـ حيث لم يمهله القدر لإنمائها وتسجيلها كتابة ، وإنما لم يزد على إملائها في عدة برامج دراسية على طلابه في جنيف ـ تمثل حجر الزاوية ونقطة الانطلاق في النظرية البنائية ، لا في علم اللغة فحسب وإنما في جميع ميادين الدراسات الإنسانية[١٠] .

هذا وقد لاحظ د. صلاح أن دي سوسير لم يستخدم كلمة البنية في بحوثه على الإطلاق ، وإنما كان يتحدث عن النظام والهيكل والعلاقات ، مما يعد إرهاصا بها وتمهيدا لمفهومها في نظره[١١] .

ويذكر الدكتور يوسف نور عوض أن البنيوية على الرغم من أنها تأسست على المباديء التي قامت عليها الألسنية ، فإن ظهورها ، في حد ذاته ، اعتبر حركة أدبية مهمة ومؤثرة خلال الستينات والسبعينات من هذا القرن ، وكان من أهم دعاتها ـ أي جي جريماس ، وأمبرتواكو ، وتفتزان تُودوروف ، ورُونالدبارت، وجيرارد جانيت . وغيرهم كثير(١٢) .

ويمكن إرجاع البنيوية في نشأتها الأولى إلى « العلامية » الروسية»، وكذلك إلى الشكلانية الروسية ، وقد أكد ذلك د. عوض . بل إن د. صلاح فضل يؤكد أن المدرسة الشكلية الروسية تعتبر الرافد الثاني من روافد البنائية التي وضع دى سوسير حجرها الأساسي(١٣) .

من مؤسس البنيوية ؟ !

تبين لنا من إجماع النقاد البنيويين أن فرديناند دى سوسير (١٨٥٧ـ ١٩١٣) هو المؤلف الرائد للبنيوية وإن كان بعض المؤرخين مثل د. حلمي خليل يرى أن العالم اللغوي الروسي بودوان دى كورتينى (١٨٤٥ ـ ١٩٢٩) هو الأب الحقيقي لعلم اللغة البنيوية(١٤) .

وعلى أية حال فسواء أكان دى سوسير الرائد الأول للبنيوية أم كان دى كورتيني فإن النظرية البنيوية لم تكن عملا جليلا يستحق التقدير بقدر ما كانت خطرًا داهمًا في مجال النقد الأدبي .

وليس أدل على ذلك مما قاله ناقد غربي هو جورج مونين إذ قال : ومهما كانت أعمال دى سوسير جليلة ، ومهما كان تأثيره عميقا مباشرا في بعض النواحي ، وقاصرا في نواح أخرى ، فإننا نبسط التاريخ إذا نصبنا له تمثالا

رائعا منعزلا عند مفترق طرق خاوية (١٥) أي في مكان لا قيمة له ، لشخصية لا قيمة لها كذلك .

والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء البنيوية وغيرها من المذاهب النقدية الحداثية هو : هل للألسنية أو للبنيوية أو للسيميولوجية أو غيرها من المذاهب النقدية محظوراتها الدينية ؟ أو لا ؟ هل هي مناهج نقدية وأدبية ؟ أو أدوات بحث ونقد للدراسة ؟ .. وهل تصلح لنقادنا ولأدبنا ؟ وهل الألسنية من البنيوية من المحظور الديني ؟ أو أنها لارتباطها بالبنائية تصبح مثلها ؟

البنيوية والألسنية والسيمولوجية مذهب نقدي واحد :

إن الدراسات أثبتت أن الألسنيين هم بنيويون كذلك . فهذا على سبيل المثال لا الحصر د. ميشال زكريا ينص على أن جاكبسون ألسنى بنائي . يقول تحت عنوان : المعالجة البنائية للافازيا (عدم القدرة على الكلام) ما نصه : نذكر في هذا المجال ، دراسات الألسنى جاكبسون المؤرخة قبل سنة ١٩٥٦م .. وينطلق جاكبسون في دراسته من مفهوم الازدواجية في التنظيم اللغوي ، أو التلفظ المزدوج . وهذا المفهوم يركز عليه الألسنيون البنائيون، كما سبق وذكرناه وينص على وجود مرتبتين أو مستويين في بنية اللغة ، مستوى الفونيمات ، ومستوى المورفيمات . في ظل هذا المفهوم الألسني ، يلاحظ جاكبسون وجود نوعين من الإصابات المختلفة فيما يتعلق بمقدرة المريض على تفهم الكلام[١٦] .

ورومان جاكبسون (١٨٩٦م) أسس مع بعض الطلاب نادى موسكو الألسني، وتوجه سنة ١٩٢٠م إلى براغ ، حيث شارك تروبتسكوي في وضع الفونولوجيا البنائية (البنيوية)[١٧] .

ودى سوسير السويسري ، الذي يعجب به البنيويون ، وهو المؤثر المباشر في نشأة الألسنية البنيوية ، وضع نظرية كاملة ومتماسكة . يقول عنه ميشال زكريا، مقارنا بينه وبين بودوان دى كورتينى البولوني ما نصه : يعتبر بودوان دى كورتينى رائدًا في مجال الألسنية ، إذ كان له السبق في وضع أسسها، إلا أنه لم يؤثر مباشرة في نشأة الألسنية البنائية ، لأنه لم يضع نظرية كاملة ومتماسكة كتلك التي نجدها عند دى سوسير(١٨) .

وليس يهمنا في هذا الصدد أن نفصّل القول في الألسنية أو البنيوية أو السميولوجية بقدر ما يهمنا أن نعرف أن هذه كلها واحدة ، والرائد فيها جميعا هو فرديناند دى سوسير السويسري ، ويبدو واضحا أن البنيوية ، كما فُكّر فيها أولا وعرفنا ذلك سابقا دى سوسير ، هي القاسم المشترك الأعظم بين الأسماء الثلاثة (الألسنية ، البنيوية ، السميولوجية) .

البنيوية العربية في الميزان :

لقد دُرست البنيوية دراسات مستفيضة من قبل الغربيين قبل أن يتركها أولئك إلى ما بعد البنيوية من أعداد غير قليلة من المذاهب النقدية الأوربية الحديثة ، ودرسوا أنواع البنيويات وعُنوا بها كثيرا ، ويكفي أن ينظر المرء من ذلك إلى ما احتفظت به عنها دوائر المعارف الغربية ومنها دائرة المعارف البريطانية والقواميس العالمية ومنها قاموس ويبستر . بيد أنه من العجيب كثيرا أن البنيوية على الرغم من هجر الغربيين لها وتجاوزها إلى غيرها من المذاهب التي يرجى أن تكون ذات فائدة أو جدوى في مجال الدراسات النقدية ولم يكن ذلك كذلك ، فإن البنيوية أو البنائية بعد فسادها واضمحلالها في عقر دارها وسقوطها كما سقطت الشيوعية بعدها في عقر دارها بين عشية وضحاها، بعد

ذلك كله ، أخذ ينبش في قبورها ويصدرها من أوربا وبخاصة من أكسفورد ببريطانيا بنيوي عربي يعتبر من مروّجي ومنظّري البنيوية في العالم العربي ألا وهو د. كمال أبو ديب . لقد كتب في أكسفورد مقدمة كتابه : جدلية الخفاء والتجلّي (دراسة بنيوية في الشعر) ، وقد صدرت الطبعة الأولى في بيروت (دار العلم للملايين سنة ١٩٧٩م) وكان قبل ذلك ألّف كتابا : في البنية الإيقاعية للشعر العربي (بيروت ١٩٧٤م) .

ويعرفنا أبو ديب ببنيويته العربية الخطرة في أول سطر من كتابه (جدلية الخفاء والتجلي) بأنها ليست فلسفة « لكنها طريقة في الرؤية ، ومنهج في معاينة الوجود. ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه وبإزائه. في اللغة لا تغير البنيوية اللغة ، وفي المجتمع لا تغير البنيوية المجتمع ، وفي الشعر لا تغير البنيوية الشعر . لكنها بصرامتها وإصرارها على الاكتناه المتعمق، والإدراك متعدد الأبعاد ، والغوص على المكونات الفعلية للشيء والعلاقات التي تنشأ بين المكونات ، تغير الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر، وتحوله إلى فكر متسائل قلقٍ متوثبٍ ، مكتنهٍ ، متقصٍ ، فكر جدلي شمُولي في رهافة الفكر الخالق وعلى مستواه من اكتمال التصور والإبداع[١٩] .

ومعنى كلام هذا البنيوي أن البنيوية : تثوير جذري للفكر ، وأنها خطر على المجتمع واللغة والشعر ، إذ تُغير كل ذلك وتحوله كما قال إلى فكر متسائل ، قلق ، متوثب مكتنه ، متقص ، فكر جدلي شمولي . وسوف نقف طويلاً عند «جدلي وشمولي» .

ويمضي أبو ديب في تصريحاته المثيرة بحقيقة البنيوية فيقول ما نصه : «ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث ،

يستحيل بعدها أن نرى العالم ونُعاينه كما كان الفكر السابق علينا ، يرى العالم ويعاينه . مع ماركس ومفهومي الجدلية والصّراع الطبقي ، بشكل خاص ، أصبح محالا أن نُعاين المجتمع ، كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس . ومع الفن الحديث ، وبعد أن رسم بيكاسُو كراسِيه أصبح مُحالا أن نرى كُرسيًا كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو . ومع البنيوية ومفاهيم التزامن ، والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات ، لا العلامات نفسها ، التي تعنى ، أصبح محالا أن نعاين الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية(٢٠) .

وهكذا يكشف لنا أبو ديب عن المضامين السّيئة في النقد البنيوي الحداثي، ويبين العلاقة الحميمة بين البنيوية والماركسية قبل سقوطها ، وقد سقطت إلى غير رجعة، فلماذا التعلق بالبنيوية التي لا يقلّ خطرها عن الشيوعية الحمراء ؟ وسوف يتضح لنا كيف أن البحث العلمي أثبت أن البنيويين خَلقوا نوعا من المصالحة بين الماركسية والبنيوية . ويفصح أبو ديب عن سر من أسرار البنيوية في نصّه السابق ، بأن البنيوية لها أهداف تخريبية . فمثلما قلب بيكاسو الفن والرسم وحوله إلى طلاسمَ وتهويمات ، أصبح مُحالا أن يرى البنيويون كرسيًا كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو ، ويقصد أبو ديب باختصار شديد ، أن الفن التراثي أو التراث المأثور قد عفى عليه بيكاسو بفنه وكرسيه ، ولم يعد في مجال الفن سوى فن بيكاسو وليس غيره ، وهذا كلام لا يختلف عليه اثنان . وهناك ما هو أدهى وأمرّ في النص السابق ، يتلخص في أنه مع البنيوية ومفاهيم التزامن ، والثنائيات الضّدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات ، لا العلامات نفسها ، هي التي تعنى ، أصبح محالا أن يرى البنيويون الوجود ، كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية . ولا أدري هل

أعد البنيويون أنفسهم لرؤية شيء لا يراه بنو البشر ؟ أو أنهم يحلمون بكشف الحجب لهم ؟ وأنَّى لهم ذلك ؟ ثم إن العلامات التي أشار إليها أبو ديب هي ما يسمونه بالسيميولوجية وهي البنيوية نفسها ، ومن هنا يتبين لنا جليا أن «علامات» المنتشرة في أوساطهم هي البنيوية ولا شك أبدًا ، وهي ما يسمونه بالسيمولوجية وهي الرموز والعلامات كذلك .

ولا يكتفى كمال أبو ديب بهذا الوصف الصريح لحقيقة البنيوية المذهب النقدي الحداثي الهدام فحسب ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول : بهذا التصور وبالإصرار عليه يكون هذا الكتاب ، الذي يهدف إلى اكتناه جدلية الخفاء والتجلّي وأسرار البنية العميقة وتحولاتها - طموحًا ، لا إلى فهم عدد من النصوص ، أو الظواهر في الشعر والوجود ، بل إلى أبعد من ذلك بكثير : إلى تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر ، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسّطحية والشّخصانية ، إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة ، المتقصّية ، الموضوعية ، والشّمولية والجذرية في آن واحد : أي إلى فكر بنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة ، بل يطمح إلى تحديد المكونات الأساسية للظواهر ـ في الثقافة والمجتمع والشعر ـ ثم إلى اقتناص شبكة العلاقات التي تشعّ منها وإليها ، والدّلالات التي تنبع من هذه العلاقات ، ثم إلى البحث عن التّحولات الجوهرية للبنية ، التي تنشأ عبرها تجسيدات جديدة ، لا يمكن أن تُفهم إلا عن طريق ربطها بالبنية الأساسية وإعادتها إليها ، من خلال وعي حاد لنمطي البنى : البنية السطحية والبنية العميقة(٢١) .

ويتضح من الاعتراف الصريح الذي أدلى به د. أبو ديب عن حقيقة البنيوية ، أنها ليست عملاً أدبيا أو نقديا ، أو وسيلة إلى فهم النصوص أو

الظواهر الأدبية ، وليس ذلك فحسب بل هي شيء خطر جداً على الفكر العربي والإسلامي خاصة في نظرته للثقافة والإنسان والشعر .

ولم تكن مهمة « أبو ديب » إلا أن يؤسس بنيوية النقد الحداثي الجديد في البلاد العربية ، ويغري به الشباب ، ويجذب إليه المفتونين ، وقد فعل ذلك كثيراً . وعن مهمته الصعبة هذه يكشف أبو ديب القناع في صراحة متناهية عن هذه البنيوية :الشبح الهدام فيقول : « وبهذا التصور أيضًا ، فإن طموح هذا الكتاب ثوريّ تأسيسي ، وفي الآن نفسه رفضي نقضي (هدّام والعياذ بالله) لأن الزّمن لم يعد زمن القبول بالرقع الصغيرة التي أسميناها خلال مائة عام ـ منجزات عصر النهضة العربية ـ ولأن الفكر العربي بعد مائة عام من التخبط والتماس والبحث والانتكاس ، ما يزال ـ في أحواله العادية ـ فكرًا ترقيعيًا ، وفي أفضل أحواله فكرًا توفيقيًا ـ حيث لا يهدد التوفيقُ بنية الثقافة القديمة ، لكنه يظل فكرًا نافيًا، حيث يهدد حتى التوفيق بنية هذه الثقافة. ولأن الفكر العربي ما يزال عاجزًا عن إدراك الجدلية التي تشد المكونات الأساسية للثقافة والمجتمع ، والتي تجعل بنية القصيدة تجسّدًا لبنية الرؤيا الوجودية : بنية الثقافة ، والبنى الطبقية ، والبنى الاقتصا ـ سية ، والبنى الفكر ـ نفسية في الثقافة . ولأن الفكر العربي كذلك ما يزال عاجزًا عن التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع ، ولقوانين التطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه ، ولأن الفكر العربي أخيرًا ، ما يزال عاجزًا عن أن يبلور تصورًا بنيويا لمشروع سياسي أو اقتصادي ، أو لدراسة قصيدة أو رواية، أو لإنشاء جامعة أو مؤسسة تجارية أو عسكرية[٢٢] .

ويكفي أن يعرف القارئ لكتاب (جدلية الخفاء والتجلّي) لأبي ديب أن طموحه ثوري تأسيسي ، وفي الآن نفسه رفضي نقضي ـ هدام بكل ما تعنيه

الكلمة ـ ومن أجل هذا أولع البنيويون بالتحطيم والنقض والهدم ، فحطموا الدلالة الوضعية للغة وعملوا على نبذ قواعدها والقضاء على معانيها ، لتستحيل بعد ذلك إلى رموز وعلامات . وهذه هي البنيوية وهذه هي طموحاتها كما بينها أبو ديب في النص السابق . ولا يعني التثوير الجذري للفكر ، باختصار شديد ، إلا إلغاء المبادئ والتراث والعقل العربي (ويقصد العقل الإسلامي) ، ووجود الأمة الإسلامية في تاريخها وحضارتها وثقافتها ، والبحث عن أمة جديدة ومبادئ وأفكار جديدة كل الجدة كما يتمنى أبو ديب كل ذلك في أحلام يقظته . لقد انهال أبو ديب على فكرنا واتهمه بالترقيعية حينًا وبالتوفيقية حينًا آخر . ومع كل ذلك أو وبعد كلّ ذلك جعله فكرًا نافيًا ، أي أنه فكر لا فائدة فيه ولا غناء ، في نظر أبي ديب ! وهو فكر عاجز عن إدراك أي شيء في نظر فيلسوف البنيوية العربية الديبية العجيبة، هو عاجز عن إدراك الجدلية ... وعاجز عن إدراك التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع ولقوانين التطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه ! وهو عاجز فوق كل ذلك عن أن يبلور تصوراً بنيويا لمشروع سياسي أو اقتصادي أو حتى دراسة قصيدة أو رواية أو لإنشاء جامعة أو مؤسسة تجارية أو عسكرية ؟؟! فالفكر العربي في نظر د. كمال أبو ديب ، فكر ميت لا حياة فيه أبدًا . ومن عجب أن يُرمى الفكر العربي بمثل هذه الاتهامات ممن يجري في جسده دم عربي ، بيد أن الفكر المتهم من أبي ديب هو الفكر الإسلامي وليس الفكر العربي . ومن عجب كذلك ، بل من أشد العجب ، أن يرمى الفكر العربي من عربي أكثر مما رمى به من فرنسي حاقد قبل عقود من الزمن ألا وهو رينان الفرنسي صاحب النظرية الشعوبية الحاقدة ضد العقلية العربية السامية ، بل لقد رمى العقل الإسلامي من عدد غير قليل من المنتسبين إلى العرب مثل محمد

عابد الجابري وأدونيس ومحمد أركون وعبدالله العروي وغيرهم . ويرى الجابري أن تكوين العقل العربي تكمن فيه الأزمة . وقد قسم هذا العقل إلى عقلين : سلفي ومستغرب . والسلفي عنده : يزداد مع الوقت توغلا في الماضي بالشكل الذي يجعل التفكير فيه يفقد أسبابه الموضوعية ، والمتغرب : يحاكى النموذج الأوربي الذي يتوغل في المستقبل بالشكل الذي يجعل الأمل في اللحاق به يتضاء ل أمام اضطراد التقدم العلمي والثقافي الهائل(٢٣) .

ونمضي مع كمال أبو ديب في بنيويته العربية التي تحمس لها كثيراً في كتابه (جدلية الخفاء والتجلّى) فنجده يضع الأسس والقواعد ، بعد أن بين بنية القصيدة ، لمن يريد من العرب أن يتتلمذ عليه في كتابه هذا ليصبح بين عشية أو ضحاها بنيويا من كبار البنيويين العرب ، فذلك ما لا يكلّف كثيرا . ونراه ينظر إلى كتابه المعجزة السحرية السريعة عنده بأنه المنظور الذي يحاول تنميته . وحاول أن يركز همه على التراث العربي، واختار منه قصيدة أبي تمام في «فتح عموريّة» وقصيدة من خمريات أبي نواس ، وذكر أن العلاقات بين الثنائيات قد تكون علاقات نفي سلبى وتضاد مطلق . وذكر كذلك أن العلاقات قد تكون علاقات توسط يهدف إلى إعادة الخلق عبر التحول والتحويل ـ كما في قصيدة أدونيس ـ كيمياء النرجس ـ حلم ـ ، وقد تكون علاقات تكامل وتناغم وإغناء وإخصاب ، كما هي بشكل طاغ في قصيدة أبي تمام الرائية في مدح المعتصم والربيع (٢٤).

ولم يكلف أبو ديب نفسه عناء التنظير للبنيوية لعدد من الأسباب ذكرها في كتابه . وبخلاف ذلك ذهب يختار لهذه الدراسات البنيوية طبيعة النقد التطبيقي ، وهو عمل تبعه فيه حذو القذة بالقُذّة البنيويون العرب الحداثيون ،

الذين اقتفوا أثره وتتلمذوا عليه في هذا الكتاب الخطير ، إلى أبعد الحدود في الخطورة .

خطر النقد الحداثي :

يستطيع المرء ـ في وقفة متأنية ـ أن يعرف على الأقل حقيقة هذا المذهب النقدي الحداثي وخطره المحدق ، فيما كتبه كمال أبو ديب في مقدمة كتابه . يقول ما نصه : « لعدد من الأسباب اخترت أن يكون لهذه الدراسات البنيوية طبيعة النقد التطبيقي دون أن أخصص قسمًا من الكتاب لتقديم الأسس النظرية للمنهج البنيوي . أبرز هذه الأسباب : قيام البنيوية على تراث فكري وفلسفي ولغوي يعود إلى أوائل القرن الحاضر (ويقصد بدون أدنى شك تراث وفكر وفلسفة ولغة فرديناند دى سوسير) وكونها استمراراً لتطورات فكرية وفلسفية تضرب جذورها في أعماق التراث الأوربي ، ممتدة إلى (هيْجل) على الأقل ومفاهيمه الجدلية ، وإلى (فُرويد) والتحليل النفسي » [٢٥].

ويعيب أبو ديب على « الثقافة العربية المعاصرة أنها لم تستطع حتى الآن أن تتمثل هـذا التراث الفكري والفلسفي الأوربي تمثلاً جيداً ، وأن التراث اللغوي ـ النابع من دى سوسير ما يزال غريبًا عليها غرابة شبه مطلقة ، وإن كانت أهم أسسه النظرية جزءًا من التراث اللغوي العربي ، كما يتبلور في عمل ناقد فذّ هو عبدالقاهر الجرجاني[٢٦] . وأحال د. كمال أبو ديب إلى كتابه عن «نظرية الجرجاني» المنشور بلندن عام ١٩٧٩م . وأحال كذلك إلى مقالاته عن الجرجانى في كتابه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، في دائرة المعارف الشعرية الأمريكية ودائرة المعارف الإسلامية .

ولعل السّر الغريب في إقدام « أبو ديب » ، ومن اقتفى أثره من البنيويين الحداثيين العرب ، إلى النقد التطبيقي العملي بدلاً من توضيح نظرية النقد

والمنهج البنيوي ، هو نظرته إلى القارئ العربي الذي سيخفق إذا ما قدمت له البنيوية في شكل نظري . يقول أبو ديب ما نصه مفصحًا عن هذا السّر : «وفي ضوء هذه الحقيقة ، يصبح غير ذي جدوى كبيرة أن تقدم البنيوية على مستوى نظري صرف ، لأن طبيعة المنهج وخصائصه ستظل عصية الفهم على القاريء العربي ، الذي سيخفق لذلك في إدراك القيمة الثورية للبنيوية . أما تقديم المنهج من خلال تجلّيه في تحليل نصوص مألوفة لدى القارئ العربي ، فإنه فيما يرجى، سيتيح له الفرصة لإدراك الهوة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة في الدراسات العربية وامتيازه عليها »(٢٧) . ومن أجل هذا ركز أبو ديب على تقديم نقد بنيوي تطبيقي يُحتذى في بعض أشعار أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز ، واقتفى أثره في ذلك عدد من البنيويين مثل د. صلاح فضل في كتابه : نظرية البنائية ، وكذلك في مجلة فصول التي حُشيت بالدراسات والنقد البنيوي الحداثي .

البنيوية والعقيدة :

وللإجابة عن السؤال المطروح عن البنيوية : هل هي منهج ؟ أو مذهب وعقيدة ؟ لقد ظهر بطبيعة الحال دفاع من البنيويين طويل وعريض ، ردّ عليه عدد غير قليل من الباحثين والنقاد والمفكرين ومنهم المفكر الشهير الأستاذ أحمد الشيباني ، رحمه الله ، الذي وضح ارتباط البنيوية بالمادية بسبب مادية البنية وذهب إلى أنها ليست منهجًا بل هي مذهب واضح . وفضح أمر البنيوية والبنيويين وقال بالحرف الواحد : وتلحد البنيوية بالله عز وجل ، وتنادي بموت الإنسان وتقول : بأنه ليس ثمة تاريخ ولا ذات ... وأن كل ما هنالك هو بنية تنظم نفسها بنفسها تنظيمًا يحفظ لها وحدتها ويكفل لها المحافظة على بقائها ،

ويحقق لها ضرباً من الانغلاق الذاتى ... وأن هدف البنيوية هو تحليل الإنسان لا تركيبه ... الخ[٢٨] .

وبالإضافة إلى ما قاله الأستاذ أحمد الشيباني رحمه الله ووضحه ، فإن د. صلاح فضل أثار مثل هذا السؤال عن البنيوية وحقيقتها وأهدافها في كتابه (نظرية البنائية في النقد الأدبي) تحت عنوان : هل البنائية منهج أو مذهب ؟ وقال ما نصه : « بالرغم من أن بعض الباحثين يرون أن البنائية ليست مجرد منهج للبحث عن الإنسان في العلوم الطبيعية والإنسانية ، لكنها بما تزود به الباحث من أدوات للتحليل ، تفتح أمامه الطريق كي يصل إلى ما قد يصف بعضهم هذا المذهب بأنه علمي دقيق ، وقد يصفه البعض الآخر بأنه فلسفي ، لاشتماله على نظرية منتظمة عن الإنسان والعالم[٢٩] .

ولم يكتف د. صلاح فضل بما قال عن البنيوية فحسب ، بل فضح أمر البنيوية بأكثر من ذلك بكثير . فقد بيّن أن البنيوية هي الشكل الجديد للماركسية في مقال له في كتابه السابق الذكر ، بعنوان « محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية » ، ورد فيه ما نصه : « وفي منتصف الستينات بدا في نظر كثير من المثقفين وكأن البنائية قد أصبحت الشكل الجديد الدقيق لمعانقة المبادئ الماركسية الأصيلة في ظل أعمال بعض كبار المفكرين والباحثين ذوي الروح التقدمي العظيم ، مما جعل مبادئهم تبدو كما لو كانت صياغة علمية حديثة للماركسية ، التي تنزع إلى التخلص مما شابها من السلطة الطاغية للحكم الجزئي وإن أعلنت نهاية الإيديولوجيات »[٣٠]. وينص محمد أركون صراحة على أن الحداثة التي (ينظرون إليها) هي التي تضع حداً لاستئثار الأديان التقليدية بوضعها الينابيع والمقامات العليا لإنتاج الحقيقة الواحدة وإدارتها[٣١] .

هذا وقد بين د. يوسف نور عوض في أحدث ما كتب عن المذاهب النقدية الحديثة فيما ذكره عن (روبرت شول) صاحب كتاب « البنيوية والأدب » أن «شول» يعترف بأن الدراسات البنيوية تتركز في أساسها على آراء(فرديناند دى سوسير) و (رومان جاكسون) ، والشكلانيين الروس ، والفونولوجيا الروسية بالإضافة إلى آراء (تروبتزكَوي) و (تُودْروف) وغيرهم من البنيويين الذين استهدفوا خلق نوع من المصالحة بين الماركسية والبنيوية بعد تلك الجفوة الطويلة التي أقامها الشكلانيون بينهم وبين الماركسية ...(٣٢) .

الماركسية والبنيوية :

وإن مما لا شك فيه أن البنيوية في تصوراتها قد سبقتها الماركسية . فهي مثلها ولا تختلف عنها أبداً . والدليل على ذلك ما ينص عليه د. صلاح فضل إذ يقول : ويعود هؤلاء المفكرون إلى مصطلح البنية نفسه ـ الدال على نظام العلاقات الداخلية التي تحدد بعض الخصائص الجوهرية للشيء ، وتمثل واقعًا لا يمكن حصره في مجرد مجموع العناصر المكونة له وخاضعًا لقوانين تحكم وجوده وتحولاته ـ فيرون أن هذه التصورات قد سبقت بها الماركسية وطبقتها علميًا على المجتمعات قبل أن تأتي البنائية فتطبقها على اللغة أو الشعور أو الأدب . ويسوقون للتدليل على ذلك المقدمة التي كتبها ماركس سنة ١٨٥٩م لكتابه : إضافة لنقد الاقتصاد السياسي وهي المقدمة التي يقول فيها : إن الإنسان من خلال الإنتاج الاجتماعي للحياة يقيم بعض العلاقات الضرورية المستقلة عن إرادته ، وهي علاقات الإنتاج التي تنطبق في مرحلة من التطور على قوى الإنتاج المادية . ومجموع علاقات الإنتاج هذه ، يمثل البنية الاقتصادية للمجتمع، والقاعدة الحقيقية التي تقوم على أساسها الأبنية العليا التشريعية والسياسية وما يتطلبهما من أشكال الوعي الاجتماعي(٣٣) .

ويجب أن يذكر هنا أن كلود ليفي شتراوس الفرنسي (المولود سنة ١٩٠٦م) وهو المحور المركزي في الفكر البنيوي يعدّ ماركسيًا ، وهذا ما ينص عليه صلاح فضل في موضع آخر من كتابه فيقول : ولما كانت شخصية ليفي شتراوس محورًا مركزيًا في الفكر البنائي ، فإنه ينبغي لنا أن نعرف إلى أي مدى يعد هذا الفكر ماركسيًا وخاصة أنه كثيرًا ما يعلن عن ولائه لماركس واعتناقه لمبادئ الجدلية ـ دياليكتيك ـ كما أنه يميل إلى البرنامج الاشتراكي سياسيًا واقتصاديًا، ويرى أن مستقبل الغرب ـ والعالم كله ـ مرهون بانتصار الاشتراكية »(٣٤) . بيد أن الله جلّت قدرته خيب آماله وآمال البنيويين والاشتراكيين على حد سواء .

وهذه كلمة أخيرة تقطع من البنيويين أنفسهم ادّعاء من يزعم أن البنيوية ليست منهجًا ، بل هي مذهب ماركسي واضح. يقول د. صلاح فضل : «فالبنائية كما رأينا قد ولدت مع الشكلية الروسية والمدارس اللغوية الأوربية والأمريكية وتطورت في ألمانيا بروافدها الخاصة ، وفي إيطاليا باتجاهاتها الجمالية المحددة، ولا يمكن بأي حال اعتبار البنائيين ماركسيين مرتدين (أي لم يرتدوا عن الماركسية) بالرغم من أن الصراع بين هذين التيارين لم يخمد أواره حتى الآن . ولا ينبغي أن نغفل أن المنهج البنائي قد فتح جبهة عميقة في صفوف الماركسيين أنفسهم ، فانبرى الفيلسوف الكبير (لويس ألتوسير) وغيره لتحليل الماركسية على أساس بنائي لا إنساني ، يقبل مبدأ موت الإيديولوجية ، وصدرت الكتب عن « بنائية رأس المال » لكارل ماركس(٣٥) .

فالبنيوية تقول باختصار : بموت الإيديولوجية وضمنها الدين أو المعتقد، وأخذ الماركسيون يتحدثون ويؤلفون الكتب عن الشيوعية البنيوية ، وكذلك العكس عن البنيوية الشيوعية . وقد أشار د. يوسف نور عوض إلى أنّ المؤلف

يعتبر ميتًا في كل من البنيوية وما بعد البنيوية ... ويبدو أن موت المؤلف مشروع في البنيوية انطلاقًا من الاعتقاد بأن النظام قائم بذاته ولا يحتاج إلى أية عناصر خارجية تفسره . والمؤلف في النظام البنيوي مفعول العناصر التي تكون النظام وليس فاعلها . وليس ذلك هو الوضع فيما بعد البنيوية التي يعتبر وجود المؤلف فيها وجوداً تاريخيًا في لحظة معينة . وهذه اللحظة لا تعوق ظهور لحظات أخرى لها فاعلها الخاص بها وهو القارئ(٣٦) .

الجدليـــة :

ومن المصطلحات الخطرة التي لها بعد شمولي بين المنهج البنيوي مصطلح في النقد الحداثي عرف بـ « الجدلية » والجدلية عند رائد الجدلية المثالية هيجل هي جوهر الفن .

ولنبسط الأمر ونشرح مفهوم الجدلية ما هي ؟ هي بكل اختصار ووضوح الدياليكتيكية ، وهي الفلسفة المادية المسماة بالتحدي والاستجابة وهي التي يرسمها هيجل فيلسوف المادية الجدلية بأن الإنسان في هذه الحياة ومع هذا الكون في صراع وتشاكس وتناقض . وعرفت فلسفة هيجل بالنقيض ثم أخذها منه كارل ماركس وطور فيها الدياليكتيكية وادعى أن الجدلية كافية لتعليل التطورات الكونية والاجتماعية دون الحاجة إلى خالق أزلي عليم حكيم قدير (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) . ولقد أقام الشيوعيون الماركسيون بنيانهم الفكري (المتهدم) والسلوكي الشامل لكل جوانب الحياة على عقيدة جذرية تزعم أن المادة هي كل الوجود ... وأن هذه المادة تتحرك وتتطور مرتقية صاعدة وفق قانون الجدلية عندهم ... وزعموا أن هذا القانون هو المهيمن على حركة الوجود كله ... وزعموا أن الحياة والفكر هما نتاج هذا الوجود المادي ، فهما أيضًا خاضعان لقوانين الجدلية(٣٧) .

وإن مسألة التحرك أو بعبارة أدق « قانون التحرك » والتطور هو العقيدة الجذرية التي تزعم عند الشيوعيين الماركسيين أن المادة هي كل الوجود،وأن هذه المادة عندهم تتحرك بنفسها بدون محرك أي بدون خالق عندهم ، فهي خلقت عندهم نفسها بنفسها وأوجدت نفسها من العدم وتطورت واستمرت في التطور ، كما يفترون ، مرتقية صاعدة وفق قانون الجدلية . هذه هي الجدلية بعينها ، ولا شك . ومن عجب أن الخطر الداهم في عالم النقد يأتي من الاعتقاد في هذه الجدلية والإيمان بها وبحذافيرها ومصائبها . وقضية التحريك هذه المخيفة بنيت في النقد الحداثي أو أقيمت أساسا على الصلة الوثيقة بينها وبين قانون النقيض[٣٨].

وعوداً إلى بدء فإن الجدلية أو المادية هي المبدأ الخامس من مبادئ الماركسية المنهارة ، وهي التي كانوا يعبرون عنها بوحدة الأضداد أو وحدة التناقضات وهي تتصارع فيما بينها وفق نظام جدلية هيجل الفيلسوف الألماني (١٧٧٠/١٨٣٠م) فيدفع بها الصراع إلى التطور الصاعد (الرفع) ، إذ هو السبيل الوحيد (عندهم) لحل التناقض أو التضاد القائم بينها !! وهكذا يمكننا فهم ما يرمي إليه النقد الحداثي أو ما يستعمله من مصطلحات التصارع والتناقض والتطور الصاعد والتضاد والتوتر . وقد تصدى المفكرون الإسلاميون لهذه الفكرة وردوا عليها رداً قوياً ومن هؤلاء الشيخ المفكر الشهير عبدالرحمن حبنكة الميداني ، وبين أنها من المستحيلات العقلية التي يرفض العقل إمكان وجودها ، فضلا عن رفض الواقع لها[٣٩] .

وممن أثبت فشل الفلسفة الماركسية قبل سقوطها المفكر الإسلامي محمد سعيد رمضان البوطي وبين أن الفلسفة الماركسية في قانون وحدة الأضداد

وصراعها ، تطيل البحث في إثبات أن كل شيء في العالم المادي يحتوي على تناقضات داخلية ضمن الشيء الواحد ذاته مهما « ضؤل وصغر »(٤٠) .

وعلى أية حال فإن هذه الفلسفة الجدلية الماركسية ، قد رُفضت من قبل المفكرين الإسلاميين قبل أن تُرفض من السياسيين والاقتصاديين ، إذ من المسلمات التي يؤمن بها العقل البشري أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ومكان واحد ، ولا يتولد أحدهما من الآخر . فالسواد واللاسواد نقيضان ... والتقاؤهما معا ولو لحظة واحدة ظاهر الاستحالة(٤١) ، على حد تعبير الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

والأمثلة كثيرة جداً على انتشار الجدلية في النقد الحداثي ، وهي مصطلحات خطرة لها مفاهيمها الخاصة المرتبطة بفلسفتها الحقيقية . يكفي أن يعود المرء إلى : كتاب جدلية الخفاء والتجلي للدكتور كمال أبو ديب ليعرف شغف أصحاب النقد الحداثي ، وما أولعوا به من تعلق بمصطلح الجدلية في نقدهم البنيوي . واقرأ في نقدهم ، أو كما توهموه من نقد ، كلمات مثل : علاقة جدلية ، جدلية الخفاء ، والتجلي .. ويقولون : عالم متناقض .. قيم متناقضة .. الثنائيات .. والتضاد .. والتوتر .. وطابع تصادمي .. ويقولون : ينتقل من النقيض إلى النقيض .. الرؤيا المتضادة .. وحالتين متناقضتين .. ويقولون : تلقي الأضداد، وتتوتر اللغة .. الثنائيات الضّدية .. ويقول أبو ديب : الشاعر يعيش الأطلال بوصفها تجسد عالما هو النقيض المطلق لعالم الخمرة(٤٢) .

والمهم في الأمر أن الجري وراء مصطلح الجدلية إنما هو حبّ لفلسفة النقيض وجمع بينها وبين وحدة الأضداد ، التي تدعو إليها الجدلية الدياليكتيكية، كما سبق أن أسلفنا .

ونعود مرة أخرى لنتدبر مقولة د. كمال أبو ديب منظّر البنيوية للبنيويين العرب ، يقول أبو ديب في مقدمة كتابه : جدلية الخفاء والتجلي : مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالا أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس ... ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها هي التي تعنى أنّه أصبح محالاً أن نعاين الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية(٤٢) .

وربما كشف د. أبو ديب عن حقيقة الجدلية بقوله عن قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم :

رقّت حواشي الدهر فهي تمرمر   وغدا الثّرَى في حليه يتكسر

ومنهـا :

ملك يضلّ الفخرُ فـي أيامـه   ويقلّ فـي نفحاته ما يكثر

ويقول أبو ديب : والمذهب الكلامي هو في جوهره الفعلي تصور ثنائي ينبع من ربط ظاهرتين منفصلتين ربطا جليا يُوحّد بينهما ، ويتوحيده بينهما يتجاوز خللا منطقيا في المنطلق الفكري الأساسي له . وهكذا تصبح القصيدة (أي قصيدة أبي تمام) أيضًا ثمرة نابعة من بذرة المذهب الكلامي لأنها تكتنه مفهوم التحول ودلالاته فتقرر أنه سَيّءٌ إلا حين يكون في الطبيعة وتقع بذلك في خلل منطقي لأنها توحي بأن تغير زمن الخلافة في انتقالها إلى المعتصم سيءٌ سمج، لكنها تتجاوز هذا الخلل المنطقي عن طريق المذهب الكلامي فتربط بين الربيع والمعتصم في عملية محاجة عقلية ، تظهر أن قانون الطبيعة لا يسرى على المعتصم . ولأنه لا يسرى فإن تغير الزمن إلى زمن المعتصم نعمة رائعة ،

أما تغيره من زمن المعتصم إلى غيره فهو سماجة مؤكدة ، ولذلك تنفى القصيدة إمكانية هذا التغير الأخير(٤٤) . ويخلص إلى القول في نهاية تحليله البنيوي لقصيدة أبي تمام « وبهذين المستويين » من القدرة على تجسيد الرؤيا الشعرية والمستوى النووي الجزئي والمستوى التركيبي الكلي ، تصبح القصيدة لدى أبي تمام في نموذجها المدروس على الأقل ، تجسيداً أسمى لجدلية أساسية في كل شعر عظيم ، هي جدلية الخفاء والتجلى التي حاولت هذه الدراسة أن تكتنه بعضا من صورها الجوهرية(٤٥) .

وعلى أية حال بالاختصار الشديد يتضح لنا جليا أن تغلغل الجدلية في النقد الحداثي البنيوي يثبت دون أدنى شك ، انبثاق أو على أقل تقدير بعبارة أدق ، تلازم هذا النوع من النقد بالجدلية الدياليكتيكية ، فلسفة النقيض التي ثبت بما لا يدع مجالاً للشك فسادها ، وبرهن التاريخ سقوطها وانهيارها إلى غير رجعة في عقر دارها .

الغموض :

الغموض (Ambiguity) ويظهر في النقد الحداثي تجاوز آخر أو إشكالية أخرى أشد ارتباطًا بالجدلية السابقة ألا وهو الغموض والتعتيم والضبابية . ويسمى هذا الغموض عندهم « تعدد الاحتمالات أو اللبس الدلالي » ويعتبره منظر البنيوية للبنيويين العرب د. كمال أبو ديب في جدلية الخفاء والتجلى «أحد الخصائص الجوهرية للحداثة »(٤٦) .

وإذا بالغموض عندهم أهم ظاهرة في النقد . فالشعر أو القصيدة بعبارة أخص ، في النقد الحداثي ليس لها غرض ، واللغة فيها معطلة لا تشير إلى معنى محدد ، وإنما توحي بالمعنى إيحاءً ، وكل إنسان يفسرها بما يشاء . ومن

أجل هذا تبدو القصيدة عندهم أزلية لا تنتهي بانتهاء الشاعر من إنشائها وإنشادها ، وإنما تنمو وتترعرع ، ويصبح لها من المعاني بعدد قارئيها أبد الدهر . وهذا التفكير والقول عندهم في مسألة الغموض يشبه ما يمكن أن يوصف بالهذيان ، وأبعد ما يكون من كلام العقلاء ، ويؤدي إلى ما يمكن أن يوصف بالعبثية في الإبداع والأدب والنقد ، يؤدي كذلك إلى شلل فكري يفضي إلى تصور عجيب عن أمة لا قدر الله لا تقرأ ولا تفهم ما يكتب أو يقرأ ، أمة أمية ممسوخة عقليا وفكريا وإبداعيا. والعجيب الغريب أنه في هذا الغموض الرهيب يظهر النص الشعري مركّبا تركيبا غير مألوف ، بل إنه ليس فيه شيء من التركيب إذا لا تترابط الكلمات بل تفكك تفكيكا تناثريا ، وكأنه تدمير ونسف للجمل . فالعبارات أو الكلمات لا تجمعها رابطة وعندهم : فلتمت الأدوات النحوية التي تصل الجمل وتركب الكلمات ، ولا ضير عندهم في موت استعمالات حروف في معانيها الموضوعية لها وإحلال حروف كثيرة تستعمل في غير معانيها. وانظر إلى الضمائر المتراصة بعضها خلف بعض دون ذكر لمن تعود عليه . وهكذا يتعقد النص وينفصل عن متذوقه أو قارئه . وهنا يبدو الغموض في أدق صوره وأعقدها عندهم وهم بذلك يدعون المبدع أو الفنان إلى مزيد من تحطيم الإطار العام للتركيب اللغوي ، والثورة العارمة على ما يسمونه «الاتجاه العقلي» الذي هيمن على اللغة .

وهذا اللون من التجاوز في النقد الحداثيّ البنوي يبين بما لا يدع مجالا للشك أن أهداف الغموض عند البنيويين كسر اللغة العربية وتحطيمها وإذابتها وإماتتها بمفرداتها وتراكيبها ومعانيها وإحالتها إلى لغة ميتة مثل اللاتينية وغيرها من اللغات المحنطة ، وإيجاد لغة أخرى أو لغات أخر مغايرة للفصحى لا تمت إلى عربية القرآن الكريم بأدنى صلة أبداً .

وإن الثورة العارمة عندهم على الاتجاه العقلي تفسر تفسيراً واحداً لا ثاني له ، هو الثورة العامة على « العربية » وصرف الناس عن هذه اللغة العربية المقدسة التي نزل بها القرآن الكريم وحياً على خاتم أنبيائه ورسله سيد المرسلين وقائد الغرّ المحجلين سيدنا ونبينا محمد ﷺ ، وجاء ت بها السنة النبوية المطهرة والتراث الإسلامي الخالد . ولقد سبق نقاد الحداثة أعداءُ العربية قبلهم بزمن أو أزمان سحيقة ، فعادوا العربية وحاربوها بشتى الوسائل والطرق ، وهذا جرم كبير بحق لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث العربي الإسلامي المجيد .

وهذه الثورة العارمة من قبل نقاد الحداثة على الاتجاه العقلي الذي هيمن على اللغة كما يدّعون ، هي الثورة التي نادى بها الفيلسوف «كانْت»Kant على العقل الخالص وأخذ هؤلاء النقاد يلمّون إلماما واسعا بنظراته المعروفة كما تجلّت في ثورة كانْت الكوبرينيكية على الميتافيزيقيا القديمة والعقل الخالص .

ولكي يحققوا هذه المآرب أخذوا في التّبرؤ من اللغة العربية والمطالبة بإلغائها . فلكي تتحقّق لديهم أول خطوة في هذا المضمار أخذوا على أنفسهم ، لكي يصلوا إلى العالم المغلق وإلى الغموض للقصيدة الجديدة في نظرهم ، أن يبرأوا من التصور اللغوي القديم للغة فلا يقف أحد منهم عند الشعر نصّا بل يقف أمام لغة الشعر نفسها .

وإن أهداف الغموض في النقد الحداثي هو تحقيق الثورة على اللغة . وهذا الغموض يرونه تجلّيا بعد الخفاء . وقد سمى ذلك منظر النقد الحداثي د. كمال أبو ديب الغموض « جدلية الخفاء والتجلّي » فالنص الشعري في قصيدة أو مقطوعة أو منظومة يتّسم بالغموض . وهذا الغموض عندهم يعاد

فيه تشكيل صورة العالم ، وهناك كلمات عدّة يستعملونها من قبل : تتشكل الحياة .. تشكيل عالم .. تتشكل الموسيقى .. تتلبس اللغة .. تتلبسه اللغة .. التوحد في الطبيعة .. خيوط خفية .. تلبّس الطبيعة .. محاكات الطبيعة وممازجتها .. رؤية شمولية عميقة .. يرى ما لا يراه غيره .. حوار دقيق بين المخلوقات الخفية وألفاظ كثيرة لا حصر لها .

النقاد والمقلدون للغربيين :

هنا أود أن أشير كذلك إلى مقولة ذكرها الدكتور عبدالسلام المسدي عن تسلط العلمانية أو التيار العلماني وبخاصة على المقلدين للغربيين في الدراسات اللسانية الحديثة . يقول المسدي ، وهو الخبير بالألسنية الحديثة في كتابه : التفكير اللساني في الحضارة العربية (وهو رسالة دكتوراه أخذت من جامعة تونس سنة ١٩٧٩م) : ومن المعلوم أنّ اللسانيات قد أصبحت في حقل البحوث الإنسانية مركز الاستقطاب بلا منازع ، فكل تلك العلوم أصبحت تلتجئ – سواء في مناهج بحثها أو في تقدير حصيلتها العلمية – إلى اللسانيات وإلى ما تفرزه من تقريرات علمية وطرائق في البحث والاستخلاص . ومردّ كل هذه الظواهر إلى أن علوم الإنسان تسعى اليوم جاهدة إلى إدراك مرتبة الموضوعية بموجب تسلط التيار العلماني على الإنسان الحديث . ولما كان للسانيات فضل السبق في هذا الصراع فقد غدت جسرًا أمام بقية العلوم الإنسانية ، من تاريخ وأدب وعلم اجتماع .. يعبره جميعها لاكتساب القدر الأدنى من العلمانية في البحث[٤٧] .

وقد بين الدكتور يوسف نور عوض في مقال له : من البنيوية إلى النصانية[٤٨] أن مرحلة البنيوية تمثل إحدى مراحل القلق عند « رولان بارت »

(فهو الذي يعتبره البنيويون أحدث رائد لهم) ، فهي بدون شك أفرزت كثيراً من المفهومات التي تأثرت بها أفكاره اللاحقة ، وفي مقدمة تلك الأفكار مفهوم «موت المؤلف» ويقول بارت : إن التحليل البنيوي يفرض بالضرورة أن يفقد العمل الأدبي مصدريته التي هي المؤلف ، لأن المؤلف (حسب قوله) بكتابته للعمل الأدبي يحكم على نفسه بالموت ، إذ في الوقت الذي يموت فيه المؤلف تبدأ الكتابة بالحياة ولا يكون للكتابة حياة إذا ظل المؤلف في حالة وجود أبدي(٤٩) .

ويذهب رولان بارت إلى أنّ المؤلف « مجرد وسيلة » أو أداة يستخدمها العمل لغرض وجوده البنيوي . ويذكر الدكتور يوسف أن بارت « يرفض في ضوء هذا التصور أن تكون علاقة المؤلف بالنص مثل علاقة الأب بابنه لأن النص في نظره لا وجود له قبل عملية الكتابة : وهذه فكرة استقاها بصورة كاملة من « دريدا » وتعبر عن مرحلة جديدة من مراحل القلق عند « بارت » الذي يرى أن فكرة المؤلف السابق على النص لا تدل إلا على ابستيمولوجية ثيولوجية تهتم بتكريس الأطر المرجعية أكثر من اهتمامها بالاستخراجات الإجرائية التي تقوم عليها النصوص . وبين الدكتور يوسف أنه « لا يوجد عند بارت » نص في عالم حقيقي ، وإنما جميع النصوص في فضاء اتها الخاصة بها ، تخلق عوالمها الذاتية التي يصعب النظر إليها خارج فكرة التناص . ويرى أنه بمجرد أن نزيل المؤلف من عالم النقد تبدو أية محاولة لتحليل معنى النص محاولة مجهضة، لأن النص يفقد معناه ويسبح في فضاء لا نهائى . وينتهى بارت إلى أن المؤلف هو أكذوبة الناقد وخدعته التي يحاول أن يفرض بها آراء ه على الآخرين ، وهو لا يتجه في الحقيقة إلى مؤلف حقيقي وإنما يتحدث باسم المجتمع والتاريخ والسايكولوجيا،. والإيديولوجيا . يقول بارت « ما نصه » : من الناحية التاريخية فإن حقبة المؤلف هي في نفس الوقت حقبة الناقد(٤٩) .

وهذا الفضل الذي قدّمه عام ١٩٥٨م ليفى شتراوس - رائد البحوث الإنثروبولوجية ، أو ما يعرف عند البنيويين بالرائد الأكبر ، جعل المفتونين بالتيار العلماني يندفعون نحو اللسانيات أو قل نحو البنيوية حتى يكتسبوا القدر الأدنى من العلمانية في البحث كما قال المسدّي[٥٠] .

هوامش ومراجــع

(١) نظرية النقد الأدبي الحديث : د. يوسف نور عوض ـ (دار الأمين ـ القاهرة ـ شعبان / ١٤١٤هـ).

(٢) المرجع نفسه : ص ٥ – ٦ .

(٣) نظرية النقد : ص ٥٤ .

(٤) مقال نقدي للدكتور القط في جريدة الندوة – (عدد ١٠٧٣٨ في ٢٢ شوال – ١٤١٤هـ) .

(٥) المقال نفسه .

(٦) النظرية البنائية : د. صلاح فضل – (مصر – ١٩٧٧م) .

(٧) جان بياجيه : البنيوية (ترجمة عارف منيمنه – بيروت وباريس – ط٢ – ١٩٨٢م) .

(٨) البنيوية : ص ١٧ .

(٩) البنيوية : ص ٢١ .

(١٠) نظرية البنائية : د. فضل : ص ٢١-٢٢.

(١١) المرجع نفسه : ص ٣٢ .

(١٢) نظرية النقد : د. يوسف : ص ٢٢.

(١٣) نظرية البنائية : ص ٣٨ .

(١٤) العربية وعلم اللغة البنيوي : دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث للدكتور حلمي خليل (الإسكندرية – ١٩٨٨م) ص ١٠٣ .

(١٥) الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ والأعلام : د. ميشال زكريا (بيروت لبنان – ١٤٠٠هـ) ص٦٧.

(١٦) المرجع نفسه .

(١٧) المرجع نفسه : ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

(١٨) المرجع نفسه : ص ٢٧٤ .

(١٩) د. كمال أبو ديب : جدلية الخفاء والتّجلّي (بيروت – دار العلم للملايين – ١٩٧٩م) ص ٨ .

(٢٠) المرجع السابق .

(٢١) جدلية الخفاء : ص ٨ .

(٢٢) المرجع نفسه : ص ٩ .

(٢٣) د. محمد عابد الجابري : الخطاب العربي : ص ٢٤ .

(٢٤) جدلية الخفاء : ص ٩ – ١٠ .

(٢٥) المرجع نفسه : ص ١٠–١١ .

(٢٦) المرجع نفسه : ص ١٥ .

(٢٧) جدلية الخفاء : ص ١١ .

(٢٨) ملحق الأربعاء (جريدة المدينة - ١٤٠٨هـ) .

(٢٩) نظرية البنائية : د . صلاح فضل : ص ١٦١ .

(٣٠) المرجع نفسه : ص ٢٢١ .

(٣١) جريدة الحياة (عدد ٢٥ ذي الحجة - ١٤١٤هـ) .

(٣٢) نظرية النقد الأدبي الحديث : ص ٢٥ .

(٣٣) نظرية البنائية : ص ٢٢١ .

(٣٤) المرجع نفسه : ص ٢٢١ .

(٣٥) المرجع السابق : ص ٢٢٥ .

(٣٦) نظرية النقد : ص ٤٤-٤٥ ، وانظر جريدة الشرق الأوسط : ص ١٧ من البنيوية إلى النصية للدكتور يوسف نور عوض .

(٣٧) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ عبدالرحمن الميداني (دمشق - دار العلم - ١٤٠٥هـ) ص ١٣١ .

(٣٨) يقال في بعض النقد الحداثي : إن للشعر خاصة والإبداع عامة ، نحوه الخاص .. ضد النحو تتحرك فيه اللغة . ويقول بعضهم : يخلق أفقًا شعريًا جديدًا يتحرك فيه الشعر .. الخ

(٣٩) انظر : كواشف زيوف للمفكر الشيخ الميداني : ص ٥٥٧ .

(٤٠) العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (جامعة دمشق ١٤٠١/ ١٤٠٢هـ) .

(٤١) كبرى اليقينات الكونية للدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي : ص ٩٦ .

وانظر : نقض أوهام المادية الجدلية للمؤلف نفسه : ص ٥٧ - ٦٦ .

(٤٢) جدلية الخفاء : ص ١٩١ .

(٤٣) المرجع نفسه .

(٤٤) المرجع نفسه .

(٤٥) المرجع نفسه .

(٤٦) جدلية الخفاء : ص ٢٤٤ .

(٤٧) التفكير اللساني في الحضارة العربية د. عبدالسلام المسدّي (بيروت ١٩٨١م) : ص ٩ .

(٤٨) من البنيوية إلى النصيّة : د. يوسف نور عوض (جريدة الشرق الأوسط) .

(٤٩) جريدة الشرق الأوسط (العدد ٦٠٢٢ الخميس ٢٥/٥/١٩٩٥م) .

(٥٠) التفكير اللساني : د. المسدّي .